

251-قراءة "أخرى" على أحلام فترة النقاوة

الفصل الثانى

"تنويغات" على "الحلم" الأساسى

قراءة "أخرى" على أحلام فترة النقاوة

تقاسيم على لوحات الأحلام

وصلتني أحلام فترة النقاوة من البداية على أنها لوحات شعرية، ليست قصة قصيرة، أو شديدة القصر، كما رحى أؤكد فى أكثر من مناسبة أنها إبداع إبداع، لا أكثر ولا أقل، بمعنى أنها ليست حلماً يحكى، فنروح نفسره، وأن الأحلام الحقيقية التى كان يحملها شيخنا، لم تكن إلا مصدراً من أهم مصادر أجدية إبداعه (أثناء تلك الظروف الخاصة).

حين غامرت بالتصدى لنقد هذا العمل الرائع كنت تحت تأثير نقدى السابق لأصداء السيرة الذاتية، رحى أتناول الأحلام باعتبار كل حلم منفرد نصاً كاملاً، لكن مع المضى قدما بدأت أدرك تزايد الصعوبة، مقارنة بنقدى لأصداء فقرة فقرة،

ثم إنى لجأت بين الحين والحين - كما فعلت فى الأصداء - إلى أن أربط بين ما تيسر لى من الأحلام التى سبق قراءتها حتى حلم 52، وبين الحلم الأحداث، مع وعد بأن أعود إلى ربط أوثق فى الدراسة الشاملة بعد انتهاء من هذه الدراسة التفصيلية التجزئية.

لكن الصعوبة أخذت تزداد باضطراد خاصة حين كنت اضطر بين الحين والحين إلى فك شفرة الحلم بما يحضرنى من احتمال رموز واضحة، الأمر الذى أحاول أن أجنبه فى النقد عامة، معظم الوقت، وهنا بوجه خاص، خشية أن يقلل ذلك من قيمة الحلم المبدع، كما لاحظت كيف يستقبل قارئ النقد فك الشفرة هذا باعتباره "تفسيراً" (مثل تفسير الأحلام العادية، الأمر الذى أحذر منه أيضاً طول الوقت، حتى من وجهة نظر التحليل النفسى).

تعقيبات

رحت أتصفح التعقيبات التي جاءتني - في بريد الموقع - طوال ثمانية أشهر على هذه المحاولة حتى استطعت أن أجزها فيما يلي:

- 1- ترحيب محدود بالنقد عامة (بعضه حماسي مشجّع)
- 2- ترحيب أكثر بتفسير الحلم برموز واضحة، خاصة لو كانت رموزا سياسية، أو ضد السلطة، أو ضد الظلم. (وذلك بالرغم من، وضد، تحذيرات الناقد)
- 3- إصراراً متواتر لاستقبال الحلم على أنه "حلم" فعلا وليس إبداعا، مع أنني نبهت مرارا إلى ضرورة نفي هذا نفيا قاطعا.
- 4- تفضيل قراءة الحلم بذاته لذاته (النص) عن قراءته مع النقد .
- 5- تقريظ محدود حين يبدو أن النقد فسر غموضا بدت استحالة تفسيره من الحلم مباشرة .
- 6- احتجاج صريح (حتى الرفض أحيانا) بأن النقد/ التفسير يجب الحلم، فيقلل من تأثير رسالته الكلية .
- 7- احتجاج على غموض كل من الحلم والنقد على حد سواء .
- 8- قراءة نقدية بديلة، أغلبها يتجه - للأسف - إلى فك شفرة الحلم بما خطر للناقد على النقد أنه رمزٌ أقرب وأهم .
- 9- إطلاق تداعٍ إبداعيّ استثاره الحلم وحده، أو الحلم والنقد معاً ، لا يميل أي قدر من التفسير، أو فك شفرة الرموز، ولكنه يضيّ باعتباره استلهاما إضافة إبداعية دالة .

وقد أشرت بوضوح إلى طلاقة الابن رامى عادل، وسبقه إلى هذا النوع الأخير من القراءة .

قلت لنفسى أحذو حذوه!!

و لم لأ؟

قلت أيضا إنني أخاف هذه المغامرة،

ولا أريد أن أتحمس لها،

ومستعد أن أتراجع عنها .

نصٌ على نص

هذه هي المغامرة التي تبدأ اليوم

وقبل أن أعرض عينة من منهج القراءة الجديد، الذي هو ليس نقدا على وجه التحديد، وإنما هو بمثابة "نص على نص"، أو استلهام نص، تذكرت التجربة التي قمت بها مع الابن

د. إيهاب الخراط في قراءة بعض نصوص مواقف النفري، كما تذكرت موقفي الخذر من تفسير القرآن الكريم والنصوص المقدسة عامة، مع تأكدي على أنها نصوص للاستلهام والإجاء وليست للتفسير.

مراجعة

ثم أني رحلت أنظر في تجربتي طوال ثمانية أشهر (53 حلما) وقررت أن أعيد تحديد معالم ما وصلني من طبيعة هذه النصوص قبل أن أبدأ التجربة الجديدة على الوجه التالي :

أولاً: هذه النصوص ليست أحلاما كما ذكرت ألف مرة لكنها إبداع مكثف.

ثانياً: هذا الإبداع ليس حكيما مسلسلا متتابعا لكنه صورة ماثلة.

ثالثاً: هذه الصورة ليست صورة ثابتة، لكنها حركة بصورة متغيرة.

رابعاً: هذه الحركة ليست عشوائية شاردة، ولا هي ضامة غائبة، لكنها أحيان ذات أصالة خاصة، كثير منها مفتوح النهاية..

كل هذا جعلني أعيد النظر في طبيعة هذه النصوص، واستقبالها نصا شعريا يحمل أغلب مقومات الشعر.

بين الحلم والشعر

في مبحثي الأساسي في الإيقاع والإبداع (والذي أشرت إليه في يومية 25-3-2008 ويمكن الرجوع إليه كاملا) حركية الوجود، قارنت بين الشعر والحلم مقارنة تفصيلية، وحين تحفظت على تفسير الحلم برموزه كما هو شائع، كان من البديهي أن أرفض نقد الشعر بشرحه

الشعر لا ينقد إلا شعرا

أشرت إلى ذلك من قديم وأنا استشهد بقصيدة استاذي محمود شاكور، على قصيدة الشماخ "القوس العذراء"، ثم تأكد لي بعض ذلك بعد محاولتين في نقد الشعر، الأول كانت لشاعر شاب يطرق باب الإبداع "النزهة بن شرائح الذهب" عدد أبريل مجلة الإنسان والتطور 1981، والثانية كانت قراءة لبعض شعر صديق لي "هوامش وهواجس" هو الشاعر أحمد زرزور، أما دراستي المقارنة بين رباعيات جاهين وسرور والخيام (رباعيات ورباعيات) فقد كانت أقرب إلى تقديم نظريات نفسية متنوعة كشفت عنها هذه الرباعيات كل بطريقته.

ثم عدلت نهائيا عن نقد الشعر وقد زاد اقتناعي أن الشعر لا ينقد إلا شعرا.

وهذا يحتاج إلى بعض التوضيح: إن الشعر الأصيل يستثير في متلقيه شعرا بالعمق، حتى لو لم يترجمه إلى ألفاظ شعرية،

في بريد الغد، وبريد الأسبوع قبل الماضي تأكدت من ذلك من خلال تعقيبات أصدقاء، أعتز برأيهم جداً، على المقامتين التي نشرتهما متردداً: المقامة الأولى "كومة رعب" يومية 24-4-2008، المقامة الثانية "نيضة قلب" يومية 5-4-2008 يمكنني إيجاز أغلب التعقيبات عليهما كما يلي: "وصلنا الاحساس والايقاع والمعنى الكلى، حتى لو لم نفهم المحتوى"

وصلتني أيضاً تعقيبات على نصوص أحلام محفوظ في نفس الاتجاه، فاكتشفت أن مثل هذه التعقيبات تشير كيف أن النقد/التفسير قد يقلل من شاعرية النص.

إذا كان الأمر كذلك: الشعر لا ينقد إلا شعراء، تصبح القراءة الأولى بالنص الشعري - خصوصاً بهذه الكثافة - هي باعتباره مصدر استلهام وليس دعوة لفك شفرة

قلت: أبدأ هذه التجربة الجديدة فصلاً جديداً، مع الأحلام باعتبارها لوحات شعرية غير قابلة للنقد أو للتفسير بقدر ما هي موحية بما توحى به.

لكنني اكتشفت أنني بدأتها منذ سنوات (صالحتي شخى على نفسي) الأهرام 15-12-2003.

تجربة باكرة:

مراجعة أوراقى اكتشفت أنني اختتمت قصيدتى "علمتى شخى" في عيد ميلاد شخى الجليل الـ 92 باستلهام أحلام فترة النقاة .

ولعل في تسجيل هذا "الخلم شعرا" هنا وقد سبق أن نشره الأهرام تأكيد آخر على أن الشعر لا ينقد إلا شعراء، وأن الأجدر أن تكون استجابتنا لمثل هذا الابداع الشديد التركيز ، هو تسجيل ما يثيره عندنا مما يفيد بمثابة تنويعات على الخلم الأساسى ، لعل وعسى .

وها هو الخلم كما ورد في نهاية القصيدة المشار إليها حالا .
من وحى أحلام النقاة- سىدى- نشطت خلأبائ معاً:

" فحلمت أننى حامل،
وسمعت دقا حانياً وكأنه وعُد الجنين.
جاء المخاض ولم يكن أبداً عسيراً،
وفرحت أننى صرث أما طيبة،
لكننى قد كنت أيضاً ذلك الطفل الوليد،
فلققت ثدى أمومتى،
وسمعت ضحكا خافتا. لا.. ليس سخريئة ولكن..
... وسمعت صوتا واثقا في عمق أعماقى يقول:
"المستحيل هو النييل الممكن الآن بنا".
لمست عباءتك الرقيقة جانبا من بعض وعيى،
فعلمت أنك كنته".
وصحوت أندم أنني قد كنت أحلم.

* * *

ثم إنى رحمت أستشير إبننا مبدعا فى مجال آخر (هو مجال الموسيقى) د. سيد الرفاعى ليفيدنى فيما يقابل فى الموسيقى ما أعتزمه بشأن تقاسيم وتنوعات على اللحن (الحلم) الأساسى، فكتب لى ما يلى بالحرف الواحد :

• يوجد فى الموسيقى ما يسمى تنوعات على لحن واحد

• يوجد فى الموسيقى ما يسمى بالتقاسيم من مقام أو سلم موسيقى كأن نقول مثلا: تقاسيم من مقام نهاوند أو بياتى هذا فى الموسيقى العربية .

• وهناك قالب موسيقى عربى يسمى "التحميلة" وهى عبارة عن قطعة موسيقية تخللها تقاسيم منفردة من الآلات الموسيقية المختلفة. "هى عبارة عن حوار بين آلة منفردة وآلات الأوركسترا"

• التقاسيم هى عبارة عن تأليف موسيقى مُرتجل يقوم به العازف منفرداً وقد تكون التقاسيم حرة أو مقيدة بوزن ايقاعى، وخبرة العازف تلعب دوراً هاماً فى كفاءتها .

• يوجد فى الموسيقى الغربية الكلاسيكية قالب موسيقى يسمى كونشرتو Concerto وهو عبارة عن حوار بين آلة منفردة وآلات الأوركسترا وذلك من خلال تأليف موسيقى مبدع كلامه وهو من مقامات مختلفة كأن نقول مثلا: كونشرتو البيانو والأوركسترا من مقام دو الكبير أو مى الخ.

• (انتهى كلام د. سيد رفاعى)

وبعد

ماذا أسمى هذه المحاولة الجديدة التى أبدأها اليوم؟
تنوعات على اللحن الأساسى ؟
تقاسيم على نغم أصيل؟!
نص على نص؟

دعونا نسميها كل مرة اسما مختلفا حتى نتعرف على طبيعتها
أو لا نسميها إطلاقا.
النص: حلم 53 "اللحن الأساسى"

سألت عن صديقى فقيل لى أن الموسيقار الشيخ زكريا أحمد يسهر فى بيته كل ليلة شاديا بأخانه حتى مطلع الفجر فقلت يا بخته ودعيت حضور سهرة فذهبت إلى الحجره الواسعة المزخرفة جدرانها بالأرابيسك .. ورأيت الشيخ زكريا جالسا على أريكة محتضنا عوده وهو يغنى 'هوه ده مجلس من الله' وفى حلقة جلست الأسرة نساء وأطفالا وبينها رجل معلق من قدميه وتحت رأسه على مبعده ذراع طست ملئ بمية النار.

وضاعف من ذهولى أن الجميع كانوا يتابعون الغناء دون أدنى التفات إلى الرجل المعذب.

التنوعات

قالت المرأة المتنقبة للرجل الأملس، إن هذا هو آخر ما كنت أتصوره من الشيخ زكريا بالذات، ردّ الرجل بصوت عال مع أنه كان يتلفت: ما عليك، المهم هو ما سيكون بيننا بعد السهرة، فقالت هامسة: إخفض صوتك.

وصاح طفل من المتحلقين حول الرجل المعلق صياحا غامضا كأنه يطلب ماء أو أماناً، فزع الجميع لأن صياحه تصاعد حتى بدا كعواء ذئب جائع، بل مسعور، وتحرك العطش في الجميع دون استثناء.

نبه الشيخ سيد درويش أنه "ما هكذا يكون الغناء"،
سأله محمد عبد الوهاب: إذن كيف يكون؟

قال الشيخ أحمد عبد الجواد: يا جماعة دعونا نستمع الله يخليكم، هل هذا وقته؟

ويلاحظ الجميع، أن الرجل المعلق ما زالت تدب فيه الحياة جداً، ويسأل جار جاره: ألا يشبه وجهه وجه "أحمد عاكف"، فيرد: لست متأكداً، لكن صوت سعاله يشبهه.

خطف الأطفال طست ماء النار وجروا بها وهو يترجرجر بين أيديهم إلى خارج الدار فرحين مهللين، فولولت النسوة وهرولت إحداهن وراء الأطفال، فاصطدمت بالرجل المعلق الذي ابتسم وغمز بعينه اليسرى برغم رعبه وألمه، فزغردت بقية النسوة ورحن يتراقصن معه وهن يصنعن كورسا يتناوب ترديده مع المحيطين بالشيخ، مردداً: "هو دا يخلص من الله".

النص حلم 54: "اللحن الأساسي"

في الحجرة المغلقة دار الحوار بيني وبين المذيعة وكان الحديث عن الموسيقى المحلية والأجنبية، وعند بعض مراحل الحوار أقوم للبيانو وأعزف عليه بعض الألحان. وكلما مر وقت فتح الباب ودخلت سيدة من أهل البيت لعلها أمي أو أخرى في منزلتها تقدم مشروباً وتذهب، ولكن وضح لنا أنها كانت تراقب خلوتنا بريئة.

وضقت ذرعاً برقابتها فعزمت على تحديها بصورة غير مسبوقة فما أن سمعت صوت الباب وهو يفتح حتى اندفعت نحو المذيعة وضممتها إلى صدري.

ولم أعد أبالي شيئاً كما لم أجد غضاضة ما. ولما انتهيت من التحدى كانت المرأة قد اختفت من الحجرة بل ومن البيت كله.

تقاسيم :

.... وصلنى صوتها بعد أن اختفت، وهى تقول بلهجة حاسمة: ولكنها أختك، فتأكدت أن الصوت صوت أمى، لم أرد عليها لأننى كنت على يقين من أنها ليست أختى، حتى لو كانت هى ابنتها من بطنها،

هذه المرأة تفسد كل شئ لصالحها هى دون سواها. قالت تؤكد من جديد: قلت لك إنها "حميدة أختك"

داخلى شك جديد لأن اسم حميدة غير شائع (أو ربما ممنوع) بين المذيعات والممثلات.

وانتقل انتباهى إلى صوت طقطقه أرجل ثقيلة تتمشى فوق السقف الخشى ذهابا وجيئة، نفس الخطوات لكنها تصدر أنغاما متقطعة مختلفة، كأنها موسيقى سوداء فى خلفية قصيدة نثر شاعر مجهول،

أقوم إلى البيانو لأعاهد العزف لعله يطغى على هذه الطقطقة، فلا أجده فى مكانه، وحين عدت إلى الحجرة، لم أجد المذبة أيضا.

يتصاعد طرُقُ على الباب، فأبتعد، يزداد الطرق فأخاف أكثر أن أفتح خشية أن أواجه أيا من الوجهين، المذبة أو أمى،

أما أبى فكان مازال يتمشى على السطح يقرأ ورده كالعادة، فتزيد طقطقه الخشب، ويتسرب تراب قديم من السقف فى استحياء،

فأزداد رعبا ولا أملك إلا أن أواصل الانتظار.

- محمود محمد شاکر قصيدة "القوس العذراء" ردا على قصيدة الشماخ بن ضراب الخطفانى.

- نشرت الدراسة فى "كتاب القاهرة" (العدد 58) 1986/4/15

- كنت أنوى أن تتبادل قراءتى لهذه الأحلام مع ما أسميته "فى شرف صحبة نجيب محفوظ" ثم طغت قراءة الأحلام عليها دون استئذان، وحين قرأت اسم الشيخ زكريا أحمد فى هذا الحلم تذكرت بعض ما حدثنى شيخى عنه، فعدت إلى أوراقى تلك، وقلت أقتطف هذه الأسطر مما سجلته آنذاك، (وهو مقتطف ليس له علاقة بالحلم)

الخميس: 19-1-1995

1- ثم عاد الأستاذ يهاجم مرض السكر ويذكر الشيخ زكريا أحمد، وأنه كان مصابا بالسكر

حتى ظهرت له دمامل فى كل جسمه، وأنه كان يذهب ليعوده فى الفجالة، فيفتح الصوان فى حجرة نومه ويريهما ما تفضل عليه

أهل المزاج بالهدايا المناسبة تقديرا لفته, وحين زاره محمد عبد الوهاب, وأطلع علي ذلك فزع خائفا وتراجع ... الخ.

2- ... ولست أدري ما الذي جاء بذكر بريم التونسي, قال الأستاذ إنه قابله, مرة عند الشيخ زكريا أحمد, وكان ساكتا مكفها صامتا تقريبا.

3- ... وتوالت الذكريات بشكل هاديء رائع ولم أستطع أن أتابع كل ما قيل من اسماء وأغاني ومخرجين.

قال الأستاذ: هذه هي الفترة التي كنا فيها واقعين في أسر الشيخ زكريا أحمد ونكثر من التردد عليه.